لعبة البوح وا لسكوت(الدلالة المضمرة في خطاب النكتة)

" قال الله جلّ ذكره ﴿ و أنه هو أضحك و أبكى و أنه أمات و أحيا ﴾، فوضع الضحك بحذاء الحياة، و وضع البكاء بحذاء الموت و إنه لا يضيف الله إلى نفسه القبيح و لايمنّ على خلقه بالنقص... و كيف لا يكون موقعه من سرور النفس عظما و من مصلحة الطباع كبيرا و هو شيئ في أصل الطباع و في أساس التركيب. و متى أريد بالمزح النفع و بالضحك الشيئ الذي له جُعل الضحك صار المزح جدّا و الضحك وقارا". (الجاحظ في تقديمه لكتاب البخلاء).

تنتمي النكتة إلى الأدب الشفهي، و هي جنس أدبي شعبي يقوم على السخرية و التهكم الذي يرمي إلى إثارة الضحك.

إن النكتة كشكل تعبيري أدبي شعبي هي موقف و رأي ساخر اتجاه موضوع ما و بالتالي فهي تريد نقل هذا الموقف إلى الآخرين من أجل كشفه و تعريته و فضح ما به من مفارقات في ثوب ترفيهي فكاهي.

و لئن ارتبطت النكتة بالضحك و بالفكاهة، فإنها تتعدى في باطنها مستوى الإمتاع و المؤانسة لأنها تبطن موقفا ناقدا رافضا لموضوعها، فهي إذن نص يدمر مضمونه شكله؛ و ذلك أنه بعد إدراك كنه الموضوع و ما يثيره من سخرية و ضحك يتحول كل نص نكتة عند المتلقي إلى خطاب نقدي و صرخة تفجيرية.

إن النكتة في اعتمادها على السخرية إنما تبدي ظاهرا و تخفي مستورا(تبطن مضمرات)؛ إنها نص يمارس لعبة البوح و السكوت فهي تبدي ظاهرا ساخرا و تبطن حقائق درامية، فالبقدر الذي تسليك و تضحكك فهي تضعك في مواجهة تهافتك و هشاشة ذاتك أمام هول الواقع الذي يشيّئ الإنسان و يحيله إلى لعبة في يد قوانين القمع و التسلط.

هكذا تتحدد القراءة التأويلية لما تنطوي عليه النكتة من سخرية و ضحك؛ إنها تلتحم بفضاء الهزل، لكن لا لتقبع في ابتذاله بل لتؤسس رؤية يدعمها فضح و تعرية للواقع الهش.

تمهيد:

تتناسل عن الهزل و السخرية عدة معاني منها المزاح و التندر و التفكه و الدعابة و الظرف و الاستهزاء ، و كل معنى من هذه المعاني يندرج ضمن جنس أدبي مخصوص؛ كالنادرة والطرفة و الدعابة و الحكاية الهزلية .

و يزخر التراث الشعبي بكل أنواع الهزل و السخرية منها المسرح الكوميدي و النكتة الشعبية التي تدار في المجالس و المسامرات، بل و تكاد تتوفر في كل خطاباتنا اليومية، و إنما يرجع ذلك لارتباطها بعملية إثارة الضحك و الترفيه؛ ففي ظل ما يعانيه الإنسان من غبن وضغط يومي يجد في النكتة متنفّسا، إن على مستوى التسلية(فهي تسلي و تخفف) و إن على مستوى النقد و التنفيس عن المكبوت؛ إذ أنها تفجير لكبت داخلي، و استبطان رمزي رافض، و ما الضحك الذي تنطوي عليه إلا تمثيل إغوائيّ ساخر لما يدور في الأوساط الشعبية.

تعريف النكتة: لغة و اصطلاحا

ورد في لسان العرب:" نكت الليث: النَكْت أن تنكت بقضيب في الأرض، فتؤثر بطرفه فيها. و في الحديث: فجعل ينكت بقضيب: أي يضرب الأرض بطرفه... و في حديث عمر رضي الله عنه: دخلت المسجد فإذا الناس ينكتون بالحصى: أي يضربون به الأرض.و النكتة كالنقطة، و في حديث الجمعة:فإذا فيها نكتة سوداء: أي أثر قليل كالنقطة، شبه الوسخ في المرآة و السيف و نحوها.[1]

و يقول الفراهيدي:" نكت:النَّكْت، أن تنكت بقضيب في الأرض، فتؤثر فيها بطرفه.و النُكتة: شبه و قرة في العين و شبه وسخ في المرآة و كل شيئ مثله سواد في بياض أو بياض في سواد.[2]

1- ابن منظور" لسان العرب"ج2 دار صادر للطباعة بيروت " ط3 ص 100

2- الفراهيدي" العين" ج5 ص:339

و من المجاز: جاء بنكتة و بنكت في كلامه، و قد نكتّ في قوله، و رجل منكت و نكّات في الأعراض: طعان[1]

أما فيما يتعلق بالجانب الاصطلاحي فقد تعددت التعاريف ، إلا أن ثمة إجماع و تقارب في الرؤئ فيما يتعلق بكونها شكل من أشكال التعبير الشعبي الهادف، فهي:" موقف و رأي ساخر اتجاه موضوع ما، و بالتالي تريد نقل هذا الموقف إلى الآخرين من أجل كشفه ومعرفة كنهه و ما يختويه من عيوب و مفارقات اجتماعية في ثوب خفيف ترفيهي" [2]

و هذا يعني أن النكتة تعبير معرفي في قالب فكاهي هدفه إخراج الفرد من حال الكآبة إلى حال الانشراح:" فهي نشاط ذهني من نوع خاص" [3]

سوسيلوجيا الضحك و التنكيت:

لا يمكن إغفال رأي العرب و حبهم للضحك و التنكيت، و يكفي أن نقرأ ما كتب حول أخبار الملوك و مجالسهم و مسامراتهم و كذا ملح الشعراء و نوادرهم كنوادر أبي نواس و أهاجي الجاحظ الكاريكاتيرية، كما يمكن أن نذكر في هذا السياق مؤلّف ابن الجوزي حول " أخبار الحمقى و المغفلين" و " الامتاع و المؤانسة" للتوحيدي و غيرها من المؤلفات و النظريات العربية اتي تشيد بالضحك، كنظريات الجاحظ الذي استطاع بفكره الثاقب أن يصوغ شبه نظرية عن الضحك و وظيفته التعليمية و الديداكتية و كان يرى " في الجد المطلق مبغضة و في المزاح محبة" [4] و قد أسهب في مقارنة الضحك بأضداده كالبكاء و الجد يقول في فضل الضحك:" و لو كان الضحك قبيحا من الضاحك و قبيحا من المضحك لما قيل للزهرة و الحلي و القصر المبني كأنه يضحك ضحكا ... و لفضل خصال الضحك عند العرب

1- ظر الزمخشري" أساس البلاغة" ج2 ص:302ين

2- ي محمد" الأدب الشعبي بين النظرية و التطبيق" ديان المطبوعات الجامعية. الجزائر. ص:82يدسع

3- نبيلة ابراهيم" أشكال التعبير في الأدب الشعبي" ص:230

4- الجاحظ " البخلاء" ت ص:6

تسمي أولادها بالضحاك و ببسام و بطلق و طليق، و قد ضحك النبي و مزح و ضحك الصالحون و مزحوا و قالوا هو ضحوك السن و بسام العشيات"[1]

كما أن الجاحظ قد اختار الهزل قناة لتمرير مواقفه حول بعض المحرمات و الطابوهات كالجنس و الدين و يمكن اعتبار هزله في هذه ا لمسائل ضربا من الجد، فاستعمال الهزل في هذه المواضع يعفيه من المسؤولية و الرقابة ذلك أن الخطاب الساخر يحمل القليل من المسؤولية بالنسبة بالنسبة للمتكلم ذلك أن محتواه الجاد يمكن إنكاره[2]

تنبع إذن الأهمية السوسيلوجية للنكتة من كونها وليدة المجتمع و ملابسات الواقع، فهي نوع من التوبيخ الاجتماعي؛ إذ "يدخل في لذة الضحك نية التحقير غير المعترف بها فعيوب الغير هي ما يضحكنا بسبب عدم تجانسها مع المجتمع لا بسبب عدم أخلاقيتها"[3]

إن النكتة الحقيقية هي تلك التي تعرّي السلوك و تفضحه عبر استخدام الكلمات:" فكيف ينكشف الشخص هكذا لو أنه كان قادرا على رؤية نفسه و على محاكمتها؟" [4]

إن التعمق في النكتة بطابعها الهزلي الكاريكاتيري يطلعنا على رغبات المجتمع و على طبيعة العلاقات التي تربط الفرد بذاته و بالآخرين و حضورها مبرَر؛ فهي حاضرة في البيت و في الشارع و في العمل حركيتها بين الأفراد تسهم في تقوية الروابط الاجتماعية و الانسانية، إذ تهدف إلى الامتاع و المؤانسة من خلال موضوعها الساخر ثم التوعية و التحسيس و التوجيه من خلال الضحك الذي هو قبل كل شيئ " تصحيح و إصلاح وضع من أجل التخجيل فيجب أن يشيع في الشخص المضحوك منه إحساسا متعبا. إن المجتمع ينتقم – عن طريق الضحك– للحريات التي أخذت منه " [5] و ضمن هذا الإطار يمكن قراءة البعد السوسيولوجي للنكتة؛ إنه يؤول إلى سلطة الواقع الثقافي والاجتماعي و ما تشيعه من

1- الجاحظ " البخلاء" ت ص:6

2- ينظر حمد شايب"الضحك في الأدب الأندلسي دراسة في وظائف الهزل وأنواعه وطرق اشتغاله" دار أبي رقراق ص5

3- ينظر هنري برغسون" الضحك" ت علي مقلد ، المؤسسة الجامعية للنشر. بيروت ص93

4- ينظر المرجع نفسه ص:98

5- هنري برغوسون " الضحك" ص: 64

سخرية كونها:" فن السطوح و به تتسطح الأعماق و تتهاوى الأعالي و تنهار البداهات و تنفضح الحقائق و يبرز سمو السطوح و عمقها " [1]

المضمر في خطاب النكتة: (لعبة الوجه و القناع)

يشتغل خطاب النكتة على آلية المفارقة من خلال اعتمادها على السخرية المبطّنة، والمقصود بالمفارقة " قدرة النص على احتواء المتناقضات ليغدو من خلالها حيزا دراميا تتنفس مكوناته الخصوصية الإشكالية؛ يطرح ظاهرا و يخفي مستورا، يقول متعارفا و يبطن مضمورا" [2] على نحو يضحى معه النص خطابا إشكاليا. لذا تجدر الإشارة إلى أهمية تجاوز البعد السطحي للنكتة " المبتور من كل رؤية معرفية تأخذ في اعتبارها قدرة الفضاء الساخر على الانطواء على تناقضاته" [3].

و تبطن النكتة مسكوتا عنه و مخزونا هائلا من الدلالات المشفرة؛ " فقد تكون سلاحا للهجوم الساخر، و قد تكون أشبه بستار رقيق عما وراءه من هزيمة الإنسان، و ربما أدارت المفارقة ظهورها لعالمنا الواقعي و قلبته رأسا على عقب" [4]. على نحو يعرّي الواقع ويفضحه، و يكشف ما به من تناقضات و زيف لأن النكتة موقف و رأي ساخر اتجاه موضوع ما من أجل كشفه, و تعرية ما يحتويه من مفارقات في قالب ترفيهي، و من هنا جاز لنا أن نقول أن النكتة تخفي:" جدية ماكرة على المستوى المضمر و العميق" [5]، فالنكتة على هذا النحو ليست بتلك البراءة التي نتصورها، و إنما هي استبطانات رمزية لحقائق مهولة– ربما– ما كنا لنلتفت إليها و ندرك حقيقتها لولا أنها قد شاعت بواسطة الخطاب التنكيتي.

1- عبد السلام عبد العالي" السخرية و مسألة الحقيقة" مجلة الدوحة. وزارة الثقافة و الفنون، العدد70 .2013" ص:31

2- عدبع الله ابراهيم" السردية العربية"، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت.2000.ص55

3– عبد الوهاب شعلان" السرد العربي القديم البنية السوسيوثقافية و الخصوصيات الجمالية" منتديات ستار تايمز

ا –- المرجع السابق

5- المصطفى يلداش" الهزل و السخرية في التراث الشفاهي" . منشورات الآداب،الرباط.ص:77كلية

و كثيرا ما تبطن النكتة صراعا بين المركز و الهامش :" بوصفه يمثل الوجه الحقيقي، أو لنقل الخفي لقناع الفكاهة الظاهر و الجلي، في أفق إعادة توزيع تمظهرات السلطة رمزيا ولغويا داخل النسيج الاجتماعي" [1]؛ فالطابع العدواني الساخر حيال جنس أو عرق معين بالنيل منه و الحط من شأنه، في مقابل تعظيم و تبجيل جنس آخر بوصفه المركز الذي يمارس نزعة الهيمنة ضد الهامش باعتباره ضحية التنكيت[2] يكشف عن صراع مستديم في المنظومة القيمية و عن شيوع ثنائات ضدية تنتصر للمركز؛ كتلك النكت التي تسخر من الصعيدي في مصر و من المعسكري* في الجزائر، أو تلك تلك التي تسخر من سكان الأرياف بوصفهم متخلفين و ربما متوحشين في مقابل سكان المدن المتطورين والمتحضرين.

و كثيرا ما اتخذ الاستعمار النكتة وسيلة لخلق عداوات من شأنها إضرام العنصرية بين فئات المجتمعات المحتلة، كسعيه مثلا لخلق عداوات بين الشاوي و القبائلي في الجزائر؛ لسبب بسيط هو أن الشاوي الذي يتمركز حول جبال الأوراس(شرقي الجزائر) قد قاوم الاستعمار و كان عصيا، و ظهرت نكت مثل:(قبائلي يمر على مقبرة، ممتطيا حماره فيتوقف و عوض أن يقول يرحمكم الله يا أهل المقبرة يقول لهم:إذا كنتم قبائل يقبلكم آربي، و إن كنتم شاوية يشويكم آربي، و إن كنتم عربا أرّا...أرّا...– يعني أنه ينكز حماره بما معناه دعنا نذهب لأن ما سوف أقوله في حقهم لا ينتهي–)؛ هذه النكتة أشاعها الاستعمار باعتباره – المركز– ضد الشعب الجزائري –الهامش–، و هي على لسان الشاوي القوي و المقاوم للاحتلال و الذي تربطه علاقات طيبة مع العربي الذي يدخل معه دائرة المركز بالمقارنة مع القبائلي الذي ينحدر لدَرَكة الهامش، فاتخذت " لبوس الضحك دثارا لتمرير خطاباتها بمختلف تلويناتها و أشكالها من قبيل فضح الصراع من أجل الهيمنة المسلط على الهامش من طرف المركز" [3]

1- المرجع السابق.ص:86

2- ينظر المرجع نفسه.ص:86

*- معسكر: ولاية بغرب الجزائر

3- المصطفى شادلي" الهزل و السخرية في التراث الشفاهي" منشورات كلية الآداب. الرباط.ص:88

و هي تبئير لموقف يعلي من نفسه، و يحطّ من الآخر؛ إنه نوع من الترميز الفكري، يوحي بأن سلطة المركز قوة كامنة لا تكتفي بممارسة الفعل القهري و إنما تتلبس بتمظهراته رغبة في تحويل نهجها المتغطرس نحو المجال الرمزي[1]

و كما يتعالى المركز و يصدر نكتا ضد الهامش، يصدر الهامش أيضا نكتا لتدجين سلطة المركز متحايلا بذلك على أنساق تهميشه، مما يعني أن خطابا مسكوتا عنه قد غيّب وأقصي؛ إن هذا الإقصاء و التغييب قد أوجد تمثيلات رمزية على سبيل النكتة باعتبارها الشكل الفني للسخرية و البناء المعماري للنقد الرافض لكل أشكال الظلم و السيطرة، و يمكن أن ندرج في هذا السياق تلك النكت التي تصدر في حق القادة و الرؤساء و السّاسة للنيل منهم رمزيا، لكي تثبت العامة لنفسها أن هؤلاء الأقوياء ليسو آلهة و لا أنصاف آلهة، و أنهم ليسوا بتلك القداسة التي نتصورها، و إنما هم أشخاص عاديون يتعرون و ينهزمون ويضعفون مثلهم تماما، بل و تصدر عنهم سلوكات خرقاء، تدل على غبائهم و جهلهم؛ ومن ذلك أن أحد الرؤساء ضرب ابنه لأنه قال له : أنت أمي، ظنا منه أن ابنه لا يفرق بينه وبين والدته في حين كان الولد يقصد أن أباه جاهل.

أو قول أحد الضباط لصديقه أن مدير مكتبه غبي و عندما سأله صديقه كيف ذلك قال له سأثبت لك الأمر، فنادى مدير مكتبه و طلب منه أن يذهب للبيت ليتأكد ما إن كان موجودا أو لا. فذهب المدير إلى البيت ليرجع إلى الضابط و يقول له لم أجدك في البيت يا سيدي. فيقول الضابط لصديقه: أرأيت؟ كان بإمكانه أن يسأل عني في الهاتف بدل القيام بكل هذا المشوار.

في هذه الحالة تضحى النكتة وسيلة للمقاومة الثقافية و خرق المحظور و تجاوز الطابوهات، و من هنا جاز لنا القول مع هنري برجسون أن النكتة:" هي محاولة قهر القهر وهتاف الصامتين،إنها نزهة في المقهور والمسكوت عنه"[1]

1- ينظر: رحمة بورقية " الدولة و السلطة و المجتمع".دار الطليعة بيروت ص:11

و تظهر النكتة في تجلّ آخر بوصفها وسيلة للمقاومة الثقافية ، تستهدف الآخر بوصفه يقابل الأنا و يضاده؛ فالذات تصور الآخر و تمثله تنكيتا ملتمسة كل السبل التي تقربها منه، ولكن دون أن تلتحم به و هذه الصور صادرة غالبا عن أنظمة متمركزة تسعى للحفاظ على مركزها التفوقي الاستعلائي.

و تشكل النكات الاجتماعية مخزونا ثريا يمكن العودة إليه لاستجلاء الصور التي تصنع الآخر و الذات معا، و تكشف ذلك التواطؤ بين الثقافي و الأدبي؛ فالثقافة تمتلك أنساقها الخاصة و المهيمنة، و تتوسل هذه الهيمنة عبر التخفي خلف أقنعة سميكة، و أهم هذه الأقنعة و أخطرها هو قناع الجمالية البلاغي الذي يخبئ في تلافيفه شيئا آخر غير الجمالية. و ليست الجمالية سوى أداة تسويق و تمرير لهذا المخبوء.[2]

و بتتبعنا لبعض أشكال النكات الاجتماعية تتبدّى لنا حالة التبخيس و التحقير التي تلحق بالآخر الموسوم بصورة مشوّشة و مشوّهة؛ إننا نصادف نكتا كثيرة يتجلى فيها الصراع الطبقي أو الديني، أو بين الجنسين؛(المرأة و الرجل)، و أخرى يحتدم فيها الصراع بين البدو و الحضر و بين العربي و الغربي:" و كل هذه النكات يؤكد ناقلوها على انتمائهم، مقوين تضامنهم و تلاحمهم خلال مديح الذات الجمعية و السخرية من الجماعات الأخرى، خاصة تلك التي ينافسونها وبالأخص التي يتناحرون معها.[3]

و من بين هذه النكت التي تتخذ الغربي موضوعا لها بوصفه متطور تكنلوجيا أمام العربي المتخلف؛ أن فرنسيا اصطحب معه عربيا لفرنسا كي يطلعه على درجة التقدم الذي بلغته فرنسا منذ القدم، فشرعا في الحفر حتى تحصلا على حفرة تبدّى من تحتها أسلاكا فقال الفرنسي انظر إنها أسلاك الانترنات لتعرف أننا امتلكناه منذ قديم الزمان. ثم اصطحبه العربي إلى بلده و بقيا يحفران لمدة شهرين فلم يعثرا على شيئ فقال العربي لكي تعلم أننا

---

[1]- هنري بركسون:" الضحك" ترجمة علي مقلد.المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر.بيروت، ص:35

[2]- رظني: " المطابقة و الاختلاف". ص55

[3]- عليوب سينيا :" بيان حد بين الهزل و الجد" دراسة في أدب النكتة. دار المدى للثقافة. بيروت.ص:281ال

سبقناكم في التقدم لأننا كنا منذ القدم نمتلك" الويفي". في هذا المثال تمارس الذات نوعا من التحايل لإخفاء نقصها و تدنيها أمام فوقية الآخر و كماله لتضحى النكتة وسيلة للتداوي، وإيهام النفس بالتفوق أو على الأقل:" بالندّية تجاه الأقوام الأخرى، و إلا صار الكيان الجماعي المعني عرضة للانهيار من الداخل" [1] و هنا تمارس الذات مقاومة ثقافية.

و هناك نكت تعكس تحيزا فاضحا تمارسه الذات لتقديس نفسها و الحط من الآخر استنادا إلى آلية مزدوجة الفاعلية، تأخذ شكلين؛ الأول يخص الذات، إذ تنتج النكتة ذاتا نقية وحيوية، متعالية و فعالة لا يصدر عنها إلا الصواب المطلق و القيم الرفيعة, و الثاني يخص "آخرا" يشوبه الالتباس[2]. و يعتريه النقص و الخلل، فيتبدّى حينئذ ملمح التحقير والدونية، و لا أدلّ على ذلك من تلك النكات التي تتصارع فيها ثنائيتي " الرجل و المرأة " ؛ كتلك التي تصف ثرثرتها و كلامها الكثير، و منها أن المرأة عندما تغضب تتحدث لمدة ست ساعات متتالية و بسرعة الضوء و هندما تنتهي تضع رجلا على رجل و تقول" خليني ساكتة أحسن". أو تلك التي تحصي فوائد الزوجة النكدية و تصفها أنها: تجعل لسان الزوج رطبا بذكر الله، طوال اليوم يقول حسبي الله و نعم الوكيل،تساعده على غض البصر لأنه سيكره كل النساء، تساعده على صلة الرحم لأنه سيكون أغلب الوقت في بيت أهله، تساعده في الحفاظ على وزنه لأنه سيفقد الشهية إلى الأكل و سيكون ناجحا في عمله متمسكا بالقيم العليا لأنه سيقضي وقتا أطول في العمل. تكشف هده النكت و غيرها من النكت المسلطة على المرأة عن دلالة تحقيرية، مما يوحي أن المرأة بضعفها تكون عرضة للنقد والتبخيس كنوع من الوأد الرمزي، فالرغم من أن الإسلام قد أنهى الوأد كممارسة إلا أنه قد استمر في اللاوعي الجمعي، و ذلك بممارسة العنف الرمزي ضدها، فيمسي جنس النساء كله خاضعا لفوقية ذكورية تمتهن فعل التحقير حيث يضحى الخطاب الذكوري المسيطر فتمسي المرأة حاضرة كموضوع غائبة كذات؛ فهي في هذا النوع من النكت نادرا ما تكون المتكلمة، بل متكلَّما عنها, من قبل رجل يحاول إعلاء سلطته و سطوته، فتكون النكتة بذلك قد منحت

---

[1]- جعرمال سهفن ص:212

[2]- ينظرجابر عطا الله " المطابقة و الاختلاف".المركز الثقافي بيروت ص:15

الاستمرارية لدلالة تنتمي لنسق ثقافي كان قد تشكل منذ أجيال و تغلغل بصمت في:" أعماق الخطابات ينتقل ما بين اللغة و الذهن البشري فاعلا أفعاله من دون رقيب نقدي...لقدرة العناصر النسقية على الكمون و الاختفاء"[1]

كما تكشف النكت عن دلالة تحقيرية أخرى ضد المرأة ، تنال منها و تلحق بها صفات دنيئة، كالمكر و الغدر و الحيلة؛ فهي مصدر الغواية و الشرور أما الرجال فأشباه ملائكة ومن ذلك النكت التي تفصل في أسباب التسميات التي تطلق على المرأة في مقابل تلك التي تطلق على الرجل؛ الأصل في هذه ال تسمية: نساء لأنهم ينسون المعروف،حريم لأنهن يحلرمن الرجل حريته،مرأة لأنها تفقع مرترة الرجل.أما أسماء الرجال:ذكور لأنهم ذكرى جميلة في حياة المرأة، شباب لأنهم يشيبوا على الإخلاص و الوفاء،رجال لأنهم يرتجلوا الكلام الجميل للمرأة.

و شاعت في أيامنا هذه نكت كثيرة حول كيد النساء، و غالبا ما تقترن هذه النكت بذكر الشيطان؛ إذ تذكر النكتة في الأخير أن إبليس قد اعترف بأن المرأة تفوقه كيدا، أو أنه قد اعترف بهزيمته أمامها، أو أنه قد دخل مستشفى المجانين؛ و منها أن رجلا قال لزوجته أمركن عجيب تستغرقن ثلاث ساعات في إعداد ورق العنب لنأتي نحن ونتناوله في بضع دقائق، قالت تماما مثلما يستغرق منكم جمع الراتب شهرا كاملا فنأتي نحن لنصرفه في بضع دقائق عندما ننزل السوق. المهم أن إبليس مازال إلى اليوم يصفق لها.

و تقول نكتة أخرى، أن امرأة علمت بخيانة زوجها لها فأخذت سيارته ليلا و ذهبت أمام الرادار و سجلت له مئة مخالفة. المهم أن إبليس مازال مصدوما.

و هناك نكت كثيرة معنونة ب" إبليس و المرأة" و كلها تقر بتفوق المرأة على إبليس منها؛ إذا غضبت منك امرأة و بقيت صامتة فليس ذلك دليلا على ضعفها، بل هي تتناقش مع إبليس على خطة للقضاء عليك و إبليس يحاول تهدئتها.

1- عبد الله الغذامي" النقد الثقافي: قراءة في الأنساق الثقافية العربية" دار الفكر سوريا.2004.ص:72ع

كل هذه الأمثلة تعكس تحاملا صارخا ضد المرأة وتستمدّ سلطتها من حكم قديم ينتمي لنسق ثقافي يستمد مشروعيته من المقدّس الديني فقوة النسق الثقافي في المشروعية التي يتصنعها من خلال التخفّي وراء رؤى جديدة تصنع استمرارية أحكامه و تتمتّع بالتقديس مثل هذه النكت التي وجدت مبرّرا لها في النص القرآني﴿قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم ﴾ [1]

و مرد هذا الربط بين المرأة و إبليس يحيلنا على تاريخ البشر الأزلي في قصة الوجود الأولى؛ قصة آدم و حواء في مشهد التفاحة فهي:" حالة مغروسة في اللاوعي الجمعي،وتتيقظ انفعالاتها قي كل موقف تتشابه ظروفه مع ظروف التجربة الأولى"[2] فالبرغم من كون القرآن قد حمّلهما المسؤولية معا، إلا أن المخيال الشعبي قد حمّل حواء المسؤولية كلها. و من هنا جاز لنا القول أن موضوع المرأة في النكت ما هو إلا رمز لسطوة النسق الذكوري الذي يمارس نظرة التوضيع و يستحضر شرور المرأة و غوايتها و كيدها.

لقد بات لزاما أن نقر أن النكتة تشكل و احدا من أخطر الأجناس الأدبية الشعبية التي تساعدنا في الحفر عميقا في تشكل ذهنيتنا الجماعية بعيدا عن الوثوقيات الجاهزة و الأفكار الشائعة، و هي واحدة من تمظهرات الإبداع الشفهي الأثيرة التي من شأنها بناء التراتبيات الاجتماعية.[3]

خاتمة:

إذا علمنا أن النسق المضمر هو نص غير معلن يتوارى خلف أقنعة جمالية ليبوح بما يسكت عنه ظاهر النص، أضحت الملفوظات الهزلية بما فيها النكتة حوامل لحقائق مهولة ما كنا لندركها لولا إخضاعها للمساءلة الثقافية و القراءة التأويلية الفاحصة للكشف عن حيل الثقافة في تمرير أنساقها و مخاتلة السلطة عبر التخفي خلف قناع الهزل و الضحك، و من ثمة فإن النكتة:

1- سورة يوسف الأية 28

2- عبد الله الغذامي" المرأة و اللغة" المركز الثقافي. المغرب .ص:5

3- ينظر المصطفي شادلي:" الهزل و السخرية في التراث الشفاهي"ص:88

– تضمر أبعادا و مضامين تعكس واقعا مهولا يشيّئ الإنسان و يحيله إلى لعبة في يد قوانين القمع و التسلط.

– و ما الهزل و الضحك الذي تشيعه النكتة إلا ستارا ناعما يفضح هزيمة الإنسان.

– و رغم إمعانها في إثارة الضحك طلبا للترفيه إلا أنها تنمّ عن وعي بالواقع و إشكالاته لتضعنا في مفرق التساؤل و التأمل بعد الانتهاء من عملية الضحك.

– النكتة نص يدمر مضمونه شكله بحيث يتحول كل نص نكتة إلى خطاب نقدي يثير المساءلة و يمارس فضخ الواقع و تعرية السلوك المشين

– و النكتة بالقدر الذي تسليك و تمتعك تضعك في مواجهة تهافتك و هشاشة ذاتك أمام سلطة الواقع المرير فيغدو الضحك حينئذ سلوكا انتقاميا.

– و النكتة خطاب ساخر مشحون بطاقات كلامية و تكثيف رمزي يكشف عن صراع الثنائيات الضدية:(الرجل و المرأة، المركز و الهامش، الأنا و الآخر)

– و رغم أن النكتة لا تفصح عن هاجسها، فإن تأويلها يبدي جدلا بين واقعين؛ واقع مثالي تتطلبه القيم و المثل، و آخر تفرزه مطبات الحياة.

– و هنا تتجلى سلطة النكتة إذ تغدو فضاء للفتنة و الحيرة و اللبس و لكنها في تجلّ آخر لها تتماهى مع تفاصيل الواقع

– تنزل إلى الواقع و تسخر منه، لكن لا لتقبع في إبتذاله و إنما تعريّ الواقع المرير.

– النكتة خطاب يضحك الناس ليبكيهم، و يبهرهم ليخدعهم، لأنها تفضح تراجيدية الواقع من خلال ما تشيعه من سخرية و اشتغالها على آلية المفارقة التي تتمظهر وفق مستويين؛ فقد تكون سلاحا للهجوم الساخر و قد تكون ستارا يخفي هزيمة الإنسان و من ثمة فإنها نص يمارس لعبة البوح و السكوت.